

أعظمها المدرسة المستنصرية على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة وبنى غيرها من القناطر والخانات والربط ودور الضيافة وكان يقول إني أخاف ألا يثيبني الله على ما أهبه وأعطيه لأن الله تعالى يقول ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾^(١) وأنا والله لا فرق عندي بين التراب والذهب.

ولما ولي سلك في الخير والإحسان إلى الناس سيرة أبيه وأمر فتودي ببغداد بإفاضة العدل، وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها تقضى حاجته وتكشف مظلمته.

وفي عهده توفي ملك المغول الكبير جنكيز خان (سنة ٦٢٤) وحل محله في بلاد خراسان وما وراءها ابنه تولي خان فوسع مملكته إلى الغرب وأرسل فرقة إلى بلاد أذربيجان فملكها وأجلت عنها جلال الدين مكبرتي وخافهم أهل أذربيجان خوفاً شديداً ولم يكن أمامهم من يرد غائلتهم بعد جلال الدين الذي لم يجد له نصيراً لأنه وتر الملوك المجاورين له طراً.

قال ابن الأثير تعليقاً على هذه الحال (فما ترى من ملوك الإسلام من له رغبة في الجهاد ولا نصرة الدين بل كل منهم مقبل على لهوه ولعبه وظلم رعيته وهذا أخوف عندي من العدو) قال الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(٢).

وكان مقتل جلال الدين في منتصف شوال (سنة ٦٢٨) قتل شريداً طريداً لم يفده هذا الملك العظيم الذي ورثه عن أبيه، وبهلاكه تم للمغول ملك جميع البلاد الفارسية إلى حدود العراق ولم يتهاى للملوك أن يتفقوا ضد هذا العدو الشديد المراس بل كانوا فيما بينهم مختلفين يغير بعضهم على بعض عن عدوهم لاهون غافلون. صار العراق ينتظر النكبة منهم من آن لأن وخليفة بغداد مستسلم للحوادث مدل بمركزه الديني.

٣٧ - المستعصم

هو أبو أحمد عبد الله المستعصم بالله بن المستنصر بن الظاهر بن الناصر بن المستضيء بن المستنجد بن المقفي بن المستظهر بن المقتدي بن محمد الذخيرة بن القائم بن القادر بن إسحاق بن المقدّر بن المعتمد بن طلحة بن المشوكل بن المعتمد بن الرشيد بن المهدي بن المنصور ففي آبائه سبعة عشر خليفة.

بويح بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله في عاشر جمادى الآخر (سنة ٦٤٠) (٦ ديسمبر

(١) سورة: آل عمران، الآية: ٩٢.

(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٢٥.

سنة ١٢٤٢) ولم يزل خليفة إلى أن قتل بين يدي هولاء كوخان في (٢٠ محرم سنة ٦٥٦) (٢٧ يناير سنة ١٢٥٨) وبقتله انتهت الخلافة العباسية.

قال ابن طباطبا كان المستعصم رجلاً خيراً منديناً لين الجانب سهل العريكة عفيف اللسان والفرج حمل كتاب الله تعالى وكتب خطاً مليحاً وكان سهل الأخلاق وكان خفيف الرطاة إلا أنه كان مستضعف الرأي ضعيف البطش قليل الخبرة بأمور المملكة مطموحاً فيه غير مهيب في النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور وكان زمانه يتقضي أكثر بسماع الأغاني والتفرج على المساخرة وفي بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهاش من أرذال العوام إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمي فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال وكان مكفوف اليد مردود القول يتربص العزل والقبض صباح مساء.

حال التتر:

قلنا فيما تقدم إن جنكيز خان لما حانت منيته قسم ممالكه إلى أقسام أربعة بين أولاده ومنهم تولي خان الذي جعل له خراسان وما يؤهل أخذه من ديار العراقيين إلى منتهى حوافر خيولهم وقد استمر تولي في مملكته الجديدة بتوسع في الفتح ويمد بلاده إلى الغرب ويستنزئ ملوك فارس عن تخوتها حتى توفي (سنة ٦٥٤) في عهد المستعصم بالله وكانت حدود بلاده تنتهي عند بلاد العراق فخلفه في الملك ابنه هولاء كوخان حفيد جنكيز خان فأهمه التوسع في الفتح وأخذ بغداد وكان بها من يحب ذلك.

قال المؤرخون إن أهل السنة والشيعة الذين يتألف منهم جمهور البغداديين كانوا في نزاع مستمر وقد أدى هذا النزاع بينهم إلى حروب وشدائد رائدها الجهل والغفلة عن المصالح وكان وزير المستعصم من رجال الشيعة فكان يسوؤه ما يلقاه أهل مذهبه من اضطهاد أهل السنة الذين هم الجمهور الأكبر وكان يزيد في مساءته أن أهل البيت العباسي كانوا يساعدون أهل السنة لأنهم عماد بيتهم والشيعة يريدون خروج الأمر منهم وقد حصل في أواخر عهد المستعصم أن أغار أهل السنة على الكرخ وهو محلة الشيعة فأهانوا أهله وأسرفوا في قتلهم ونهب دورهم وكان ذلك بأمر أبي بكر أحد أولاد الخليفة المستعصم فيقال إن الوزير كاتب هولاء يحرضه على قصد بغداد ويعلمه فيها وجل رغبته أن تسقط الخلافة العباسية ولا يهمه بعد سقوط عدوه من تولي الملك بعده فكانت تلك المكاتبة مما ساعد هولاء على تنفيذ رغبته وأكثر المؤرخين يتهمون ابن العلقمي بهذه التهمة الشيعة حتى نقل ابن الوردي في تاريخه ما يؤكد هذه التهمة وهو رسالة أرسلها ابن العلتمي إلى وزير إربل منها أنه قد نهب الكرخ المكرم وقد ديس البساط النبوي المعظم وقد نهب العترة العلوية واستؤسرت العصاة الهاشمية وقد حسن التمثيل بقول شخص من غزية:

أمور تضحك السفهاء منها ويكي من عواقبها اللبيب
وقد عزموا على نهب الحلة والنيل بل سولت لهم أنفسهم أمراً فصر جميل:
أرى تحت الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم تطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام
فقلت من التعجب لبت شعري أبقظ أمية أم نيام
ومنها:

وزير رضي من حكمه وانتقامه بطي رقاع حشوها النظم والشر
كما تسجع الورقاء وهي حمامة وليس لها نهى يطاع ولا أمر
فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون.
ووديعة من أسر آل محمد أودعتها إن كنت من أمنائها
فلذا رأيت الكوكبين تقارنا في الجدي عند صباحها ومساءها
فهنالك يؤخذ نار آل محمد وطلابها بالترك من أعدائها
وكن لما أقول بالمرصاد وتأول أول النجم وأحرص والله أعلم.

وابن طباطبا العلوي يبعد هذه التهمة عن ابن العلقمي قال في تاريخه وقد نسب الناس إلى أنه خامر وليس ذلك بصحيح ومن أقوى الأدلة على عدم مخامرته سلامته في هذه الدولة فإن السلطان هولاءكو لما فتح بغداد وقتل الخليفة سلم البلد إلى الوزير وأحسن إليه وحكمه فلو كان قد خامر على الخليفة لما وقع الوثوق إليه اهـ والله أعلم بمقدار هذا البرهان في الإنتاج.

سارت جيوش هولاءكو الجرارة قاصدة بغداد وفي منتصف محرم (سنة ٦٥٦) نزل بنفسه على باب بغداد وأعد عدة الحصار ولم يكن عند الخليفة ما يدفع به ذلك السيل الجارف واكتفى باقفال الأبواب فجد المغول في القتال حتى ملكوا الأسوار بعد حصار لم يزد على عشرة أيام وبملك الأسوار تم لهم ملك البلد.

ولما رأى الخليفة ذلك استأذن أن يخرج إلى هولاءكو فأمر هولاءكو أن ينزل باب كلواذى أحد أبواب بغداد وشرعت جنوده في نهب تلك المدينة التي كانت حاضرة الإسلام كله ثم تقدم بإحضار الخليفة فأحضره ومثل بين يديه وقدم لهولاءكو جواهر نفيسة ولآلىء ودرراً معبأة في أطباق ففرق هولاءكو ذلك على أمرائه.

وفي رابع عشر صفر (سنة ٦٥٦) رحل عن بغداد واستصحب معه الخليفة وفي أول مرحلة قتله هو وابنه الأوسط مع ستة نفر من الخصيان وقتل ابنه الكبير ومعه جماعة من الخواص على

باب كلواذى وبهذا القتل كسفت شمس الخلافة العباسية من بغداد بعد أن مكثت مشرقة (٥٢٤ سنة) واشتفت قلوب العلويين من بني عمهم بما حل بهم من هذا الخراب والدمار.

أما بغداد دار الخلافة وعاصمة الملك فقد جرى عليها ما جرى على سواها من أمهات المدن الإسلامية فقد قتل معظم أهلها وقيل منهم من نجا وقد استبقى المغولي جماعة من الشيعة والنصارى وسكان بغداد بعد أن أفنى أكثر أهلها قوم جاؤوا مع هولاكو ومن أقطار شتى وصارت حاضرة دولة لا تدين بدين بعد أن كانت عاصمة المسلمين .

حال الدولة الإسلامية عند سقوط الدولة العباسية

- ١ - كانت بغرناطة من البلاد الأندلسية دولة بني نصر والقائم بالأمر منها مؤسسها محمد الغالب بالله بن نصر (٦٢٩ - ٦٧١).
- ٢ - بشمال إفريقية دولة الموحدين والقائم بالأمر منهم أبو حفص عمر المرتضي ابن إسحاق بن أبي يعقوب يوسف بن عيد المؤمن (٦٤٦ - ٦٦٥).
- ٣ - وبالجزائر الدولة الزيانية والقائم بالأمر منهم بغمواسن بن زيان مؤسس الدولة (٦٣٣ - ٦٨١).
- ٤ - وبتونس الدولة الحفصية والقائم بالأمر منهم أبو عبد الله محمد المستنصر بالله أبي زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص (٦٤٧ - ٦٧٥).
- ٥ - وبمراكش الدولة المرينية والقائم بالأمر منهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ - ٦٧٥).
- ٦ - وبمصر دولة المماليك البحرية والقائم بالأمر منهم المنصور نور الدين علي ابن المعز عز الدين أيبك (٦٥٥ - ٦٥٨).
- ٧ - وبالبمن الدولة الرسولية والقائم بالأمر منهم المعظفر بن يوسف بن المنصور عمر بن علي بن رسول (٦٤٧ - ٦٧٤).
- ٨ - وبصنعاء من أئمة الزيدية المتوكل شمس الدين أحمد (٦٥٦ - ٦٨٠).
- ٩ - وبالروم من السلاجقة ركن الدين قليج أرسلان الرابع (٦٥٥ - ٦٦٦).
- ١٠ - وبماردين من الدولة الأرتقية نجم الدين غازي السعيد (٦٣٧ - ٦٥٨).
- ١١ - وبفارس من الأتابكية السلفرية أبو بكر بن سعد بن زكي بن مودود (٦٣٣ - ٦٥٨).
- ١٢ - وبلورستان من الأتابكية الهزارسية دكلا بن هزارسب (٦٥٠ - ٦٥٧).
- ١٣ - وبكرمان من دولة قتلغ خان قتلغ خاتون (٦٥٥ - ٦٨١).

إجمال القول في الدولة العباسية:

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية (سنة ١٣٢) حيث بويح لأولهم أبي العباس عبد الله السفاح بالكوفة واستمرت خلافتهم إلى (سنة ٦٥٦) حيث سقط عبد الله المعتصم قتيلاً بين يدي هولاءكو خان المغولي من أعقاب جنكيز خان موحد التتر الخارج بهم إلى بلاد الإسلام. جاءت الرايات السود من المشرق فأقعدت بني العباس على عرش بني أمية وجاءت رايات التتر من المشرق فثلث عرشهم من بغداد زهرة المشرق وجنة الدنيا فمن الشرق أشرق كوكب سعدهم ومن الشرق ظهر نجم نحسهم استمرت خلافتهم (٥٢٤ سنة) استخلف فيها منهم (٣٧) خليفة فمتوسط ملك الخليفة منهم نحو (١٤ سنة) وأكبر مدة قام فيها خليفة عباسي (٤٦ سنة) وأقلها سنة فما دونها.

مكثت الدولة العباسية (١٠٠ سنة) لخلفائها الكلمة العليا والسيادة التامة على جميع العالم الإسلامي (ما عدا بلاد الأندلس) يقولون فيسمع لهم ويأمرون فيأتمر الناس ولا يجسر أحد على مخالفتهم والوقوف في وجه جنودهم إلا منافسيهم في القرب من رسول الله ﷺ وهم بنو عمهم من آل أبي طالب وبعض الخوارج الذين كانت تخبو نارهم حيناً وتلمع ثم تجيء القوة العباسية الهائلة على ذلك بسرعة.

وقام في هذا العصر الباهر من العباسيين ثمانية خلفاء وهم السفاح والمنصور والمهدي والرشد والأمين والمأمون والمعتصم والواثق متوسط خلافة الواحد منهم اثنتا عشرة سنة ونصف وينتهي هذا الدور بوفاة الواثق (سنة ٢٢٢).

ثم جاء بعد ذلك قرن آخر من (٢٢٢ إلى ٢٣٤) أخذت الدولة فيه في النزول شيئاً فشيئاً وضعف تلك المكانة التي كانت لهم في نفس الأمم الإسلامية واجترأ الأمراء بالأطراف على الاستقلال وصار أمر العباسيين يضمحل حتى لم يبق بيدهم إلا العراق وفارس والأهواز وهذه مملوءة بالاضطراب والفتن وآل الأمر إلى أن يتولى بغداد مملوك تركي أو ديلمي يطلق عليه أمير الأمراء له النفوذ التام والسلطان المطلق والولاية العامة وليس للخلافة من الأمر شيء.

قام في هذا العصر اثنا عشر خليفة. وهم المتوكل والمتنصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد والمكتفي والمقتدر والقاهر والمتقي والمستكفي الذي ملك بنو بويه في آخر عهده ومتوسط خلافة الواحد منهم ثمانين سنوات ونصف ولم يمت منهم موتاً هادئاً إلا أربعة واثباون خرجوا من الخلافة بين قتل ومخلوع. وكان استيلاء بني بويه على بغداد (سنة ٣٣٤).

جاء بعد ذلك دور ثالث من (٣٣٤ إلى ٤٤٧) ليس للخليفة فيه إلا اسم الخلافة والسلطان

الفعلي لأمة فارسية هي الأمة الديلمية التي يمثلها السلطان من بني بويه يقيم ببغداد فصار الخليفة كأنه موظف لهم يتناول منهم ما يقوم بأوده وليس له تصرف ولا نفوذ يؤمر فيأتمر ويفعل ما يراود منه لا ما يريد وليس له على أنفس المالكين شيء من السلطان الديني لمبايتهم له في العقيدة فقد كانوا شيعة غلاة يديتونه بفضل علي وآل بيته على من عداهم وإنما رضوا ببقاء الخليفة العباسي ليكون أمره عليهم هيناً يبقونه متى رأوا في بقاءه خيراً لهم ويعزلونه أو يقتلونه متى رأوا في ذلك مصلحتهم.

وقد قام في هذا الدور المستكفي والمطيع والطائع والقادر والقائم ومتوسط مدة الخليفة منهم (٢٢ سنة ونصف) والقائم هو حلقة الاتصال بين هذا الدور والذي يليه والثلاثة الأولون من خلفاء هذا الدور خلعمهم بنو بويه.

جاء بعد ذلك دور آخر من (سنة ٤٤٧) إلى (سنة ٥٩٠) انتقل السلطان الفعلي فيه إلى أمة تركية يمثلها سلطان من آل سلجوق يقيم ببلاد الجبل لا في بغداد وكان بنو العباس مع هذه الدولة أحسن حالاً منهم مع بني بويه فإن هؤلاء كانوا يحترموا الخلفاء تديناً وكانوا يبدون لهم من مظاهر التعظيم والإجلال ما يقضي به منصبهم الديني.

وقد ولي في هذا الدور المقتدي والمستظهر والمسترشد والراشد والمقتفي والمستجد والمستضيء ومتوسط خلافة الواحد منهم نحو عشرين سنة ونصف ولم يكن الخلفاء في هذه المدة على حال واحد فإنهم من عهد المسترشد شرعوا يستردون شيئاً من نفوذهم الفعلي في بغداد والعراق والذي ساعدهم على ذلك بعد آل سلجوق عنهم وتفرقهم ووقوع الحرب بينهم وقد تم استبدادهم بأمر العراق في عهد المقتفي وانقضت دولة السلاجقة (سنة ٤٩٠) على يد خوارزمشاه ونفوذهم في العراق قد اضمحل تماماً.

مكث العباسيون بعد سقوط الدولة السلجوقية (٦٦ سنة) لم يكونوا فيها تحت سلطان أحد بل كانوا مستقلين بملك العراق إلى أن قام المغول والتتار بحركتهم التي ابتدأت بأقصى تركستان وعصف ريحهم على البلاد الإسلامية فأخذ أنفاس الدولة العباسية وأزالتها من بغداد على يد هولاكو حفيد جنكيز خان (سنة ٦٥٦).

فللدولة العباسية أدوار:

- (١٠٠ سنة) عصر القوة والعمل من ١٣٢ - ٢٣٢
- (١٠٢ سنة) عصر استبداد المماليك الأتراك من ٢٣٢ - ٣٣٤
- (١١٣ سنة) عصر استبداد الملوك من آل بويه من ٣٣٤ - ٤٤٧
- (٨٣ سنة) عصر استبداد الملوك من آل سلجوق من ٤٤٧ - ٥٣٠

(١٢٦ سنة) عصر استعادة العباسيين شيئاً من نفوذهم السياسي

مع تغلب القواد من ٥٣٠ - ٦٥٦

ونريد أن نوضح هنا الأسباب الرئيسية التي أدت بهذه القوة الهائلة إلى الضعف ثم التلاشي.

١- ضعف عصبية الدولة

اعتمدت الدعوة الإسلامية من أول نشأتها على العصبية فهي التي كانت عماداً لتلك الدعوة وقد كان مما اهتم به صاحب الدعوة ﷺ القضاء على العصبية الجزئية العربية وإحياء العصبية الكلية فقد ورد عنه كثير من الأحاديث التي تنهى عن دعوة الجاهلية وهي قولهم يا لفلان وبعض هذه الأحاديث يخرج الداعي بدعوة الجاهلية عن الإسلام كقوله عليه السلام «ليس منا من دعا بدعوة الجاهلية» وسبب ذلك أن هذه العصبية الجزئية تضعف من قوة المجموع الذي هو ناصر للدعوة ومؤيد لها وقاهر لمن وقف في سبيلها وكانت نتيجة ذلك أن تأخى العدناني والقحطاني والمضري والربيعي والقيسي والكتاني - بعد أن كانوا أوزاعاً يكيد بعضهم لبعض وتتفانى قوتهم جميعاً أمام الأمم التي تحيط بهم وبذلك تكونت الأمة العربية . . الدين كونها وهي نصرته حتى صار أحدهما مرادفاً للآخر في نظر الأمم التي غالها العرب على أمرها .

صارت الأمة العربية على ذلك في صدر دولة الخلفاء الراشدين فصارعوا الفرس والروم وأجلوهم عن أعز أملاكهم واستولوا عليها تؤيدهم تلك الوحدة التي أنالها الدين قوة لا تقهر .

وكانوا مع هذه العصبية يرون لمن دخل في دينهم من الأمم الأخرى ما لهم من الحقوق وعليهم ما على العرب من الواجبات إلا أنهم لا يدلون إليهم بالمناصب الرئيسية كولاية الولايات وقيادة الجنود وهذا أمر طبعي لا تمكن مقاومته .

ولما حصلت الفرقة بين علي ومعاوية لم تكن فرقة عناصر فقد كان مع كل من الرجلين رؤساء وأجناد . من جميع القبائل العربية اليمانيون هنا وهناك والنزاريون هنا وهناك وإنما كانت فرقة أثارها الدين في صدور قوم والتنافس في الدنيا في صدور آخرين وقد أدى اختصاص كل من الخصمين العظيمين بمكان أن انجلت الحرب على خلاف وتباغض مركزين بين الأمة العربية فإن عرب الشام أبغضت عرب العراق وعرب العراق أبغضت أهل الشام ونطق بذلك بعض شعرائهم وذلك ناتج من كراهة أهل العراق لمعاوية وكراهة أهل الشام لعلي وقد أضعف ذلك كثيراً من قوة العصبية العربية .

انتقل الأمر إلى بني أمية وتولاه منهم معاوية بن أبي سفيان شيخ بني عبد مناف فدانت له الأمة وألقت بأيديها إلا أن عرق العصبية الجزئية قد شرع ينهض بعد أن كاد الإسلام يقضي عليه

وظهر على ألسنة الشعراء كلمات الفخر بما لقيائهم من السابقة وحسن الأثر وقد اتضح ذلك وضوحاً جلياً بعد انتهاء البيت السفباني وعودة الانقسام أيام قام مروان بن الحكم منازعاً قرنه العائد بالبيت وهو عبد الله بن الزبير فقد قام بمساعدة مروان عرب اليمن من كلب وغسان والمكاسك ونلواته قيس من عدنان فكان النصر لمروان واليمانية وأسرفوا في قتل قيس فتأثرت بذلك أنفسها تأثراً تمكن منها حتى قال في ذلك شيخ قيس وزعيمها زفر بن الحارث الكلابي كلمته التي أولها:

أريني سلاحي لا أبالك إنني أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
وفيها:

فلا تحبوني إن تغيت غافلاً ولا تفرحوا إن جتكم بلقائيا
فقد بنيت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازت النفوس كما هي
وفيها:

فلا صلح حتى تشط الخيل بالقنا وتثار من نسوان كلب نسايا
اجتمع شيخان من شيوخ قيس وهما زفر بن الحارث وعمير بن الحباب العلمي بقرقيسيا
وصارا يطلبان كلباً واليمانية بمن قتلوا من قيس ثم نزل عمير بنواحي الجزيرة مجاوراً لتغلب ودمه
عدد عظيم من قيس فأدى هذا الجوار إلى نزاع بين قيس وتغلب تبعته حروب حتى كتب زفر إلى
عمير يقول له:

ألا من مبلغ عني عميراً رسالة ناصح وعليه زاري
أترك حيي ذي يمن وكلباً وتعمل حد نابك في نزار
كمعتمد على إحدى يديه فخائته بوهن وانكار
وقتل في بعض الأيام عمير بن الحباب.

وقد نطق شيطان التفريق على ألسنة الشعراء المتباينين في الأنساب والمتقاربين بما يهيج
الحزازات الكامنة لا يبالون ما يخرج من أفواههم ولا يدرون قيمة ما تؤثر به كلماتهم فكل
ما أصلحه العقلاء أقصده هؤلاء وقد كان الأخطل التغلبي من شعراء تغلب ذوي الصوت المسموع
فلما صالح زفر بن الحارث عبد الملك بن مروان وجاء بقومه فبايعوا قال الأخطل من كلمة لهم:

بني أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوا لك قسراً بعد ما قهروا
ضجوا من الحرب إذ عضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

وقال مرة بمحضر عبد الملك وعنده الجحاف بن حكيم العلمي القيسي:

ألا سائل الجحاف هل هو نائر
أجحاف إن تصطك يوماً فتصطدم
تكن مثل أفداء الحباب الذي جرى
لقد حان كل الحين من رام شاعراً
يصول بمجر ليس يحصى عديده
فأجابه الجحاف على البديهة :

بل سوف نكيهم بكل مهند
وسار الجحاف بعقب هذه الكلمة إلى تغلب فأوقع بها وقعة شديدة .
وقد قال هذا الشيطان الخبيث في تلك الموقعة بعد أن أثار غبارها :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة
فائل بني مروان ما بال ذمة
وحبل ضعيف لا يزال يوصل
وقال الجحاف :

أيا مالك هل لمتني أو حضضتني
ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنوفكم
بكل فتى يتعى عميراً بسيفه
على القتل أم هل لامني كل لائم
بفتيان قيس والسيرف الصوارم
إذا اعتصمت أيمانهم بالقوائم

حيث هذه العصبيات الجزئية ولم تجد من الخلفاء من يقطع طريق نموها وكأن | لاة
بالأمصار قد مسهم طائف من شيطان هذه الجاهلية فكان الوالي اليماني يحدب على قومه ويعطف
عليهم وينصرهم ويوليهم النواحي وكذلك كان الربيعي والقيسي والتميمي وكان يظهر ذلك واضحاً
في الولايات البعيدة عن مركز الخلافة كخراسان ولا يخفى أن الدولة الأموية كانت تركز على
العصية العربية لأنها دولة عربية محضة فحياة ذلك النوع من العصية مضعف للأمة وللدولة التي
ترتكز عليها . وكان من الأمم التي ملكها العرب وذلت لهم الأمة الفارسية وهي أمة ذات تاريخ
قديم يهدمها أن تحيي ما اندرس من تاريخها . رأت نفسها مستضعفة عن مناوأة العرب والخروج
من نير حكمها بوحدة عنصرية لأن كثيراً من الفرس كانوا قد دانوا للإسلام فمن الصعب تكوين قوة
منهم تقصاد العرب أو الإسلام فاتجه فكر قادة الأمة إلى صدمة العرب باسم الإسلام وكان بنو
العباس إذ ذاك قد وجدت عندهم فكرة السعي لاسترداد حقهم من بني أمية فأروا من مصلحتهم
الاعتماد على الفرس في مساجلة بني عمهم من بني أمية وإنما لم يجعلوا عمدتهم على العرب
لأمرين الأول أنه يصعب أن تروج بين جمهور العرب فكرة الخلاص من حكم بني أمية لأن العرب

لم يمسوا بأذى من جانب تلك الدولة بل كانت في الحقيقة دولتهم وبها عزهم والثاني أن شعب العرب قد انصدع باستعار نار العصية الجزئية بين قبائلهم فكان اليمانيون في جانب والربعيون في جانب والمضربون في جانب. وأما الفرس فمن السهل إثارة عواطفهم إما بحكم العصية العنصرية وإما بحكم الإسلام ورد الخلافة إلى نصابها من آل بيت محمد ﷺ وتأثير الأول في الخاصة من أبناء الأمة الفارسية وتأثير الثاني في العامة.

قامت الدولة العباسية وليس لها عصرية عنصرية نشد أزرها وتحمي بيضتها وإنما عصبيتها هؤلاء الموالي المصطنعون وعصبية الولاء أو الحلف قد تقوم مقام عصبية القرابة لولا ما يكدرها من ميل هؤلاء الموالي إلى استرجاع ما كان لأبائهم من المجد الذي يتوارثون ذكره. وقد وجد من هؤلاء الموالي في بدء الدولة جماعة لهم قدم ثابتة في الفارسية وفي الإسلام جعلهم العباسيون في مقدمة من يعتمدون عليه.

لم يترك العباسيون في مبدأ أمرهم عصرية العرب ولم يهتموا شأنها بل استعانوا بها لتكون لهم ملجأ إذ رأوا من الموالي نكوباً عن جادة نصرتهم وميلاً إلى الاستئثار بالسلطان دونهم فاصطنعوا كثيراً من رجال العرب وحماتهم من ربيعة واليمن ومضر إلا أنهم لم يلتفتوا إلى إزالة ما بين هذه القبائل من أسباب العداء والنفرة بل بالعكس وجد منهم ما يدل على الميل على إنماء هذه الحمية ليستعينوا بفريق على الآخر.

لذلك كله يمكن أن نقول إنه لم يكن للدولة العباسية في بدء حياتها عصرية قومية متحدة الأوصال وثيقة العرى وإنما كان الإسلام هو الذي يجمع بين تلك القوى والدين وإن كان جامعاً قوياً لكنه إن لم يكن مدعماً بعصرية قومية متحدة يضعف عمله واعتبر هذا بما قدمناه لك عن رسول الله ﷺ فقد كان مما اعتبره أساساً لقوته ومنبعاً لحياته إماتة العصية الجزئية وسد الباب دون ذكرها والتلفظ بها.

كان بنو العباس يستندون أمر وزارتهم إلى رجل يختارونه من الموالي ويجعلون قيادة جنودهم إلى موال وإلى عرب ولكنهم كانوا دائماً تحت تأثير الظنون والريب التي تحوم حول عقولهم من استبداد الموالي بالسلطان فمتى شمو من وزير أو قائد من الموالي الخراسانيين رائحة من ذلك عاجلوه وانظر ما فعله المنصور بقائد الدولة العباسية الأكبر أبي مسلم الخراساني وزيره الأول ولأبي مسلم ما له من السابقة وحسن الأثر في إحياء الدولة ولكن ذلك لم ينفعه أمام ريب أبي جعفر وغيره على ملكه أن يشاركه فيه أحد ولا يمكن أن نبرئ أبا مسلم من قصد تحويل السلطان إلى قومه وليس بنو العباس في نظره إلا واسطة لذلك فهو إذا عز مراده معهم يتحول بدون إبطاء إلى بني عمهم من آل علي. ولما قتل أبو مسلم قام بالثار له قائد فارسي على دين قومه من

الوثنية سبأذ وجمع لذلك جموعاً عظيمة وكاد يزلزل بلاد خراسان لولا أن غولب بالعصية العربية فإن أبا جعفر أعد له جمهور بن مرار العجلي وهو من رجال ربيعة فكسر قوته ويقال إنه قتل من قومه في الموقعة نحواً من ستين ألفاً: وقام يطلب بثأره أيضاً الراوندية في الهاشمية نفسها فعوجلوا والذي كان القارس المعلم في يومهم قائد عظيم أيضاً من قواد ربيعة وهو معن بن زائدة الشيباني.

والخلاصة أن الدولة العباسية ابتدأت على عصبية يتحد دينها وتختلف عناصرها ولبعض هذه العناصر أغراض لا تتفق مع سيادة الدولة وعظم شأنها ونفوذ خلفائها وهذه العناصر هي العنصر العربي وهو منشق قد كاد ينسى العصبية القومية الكلية وصرع بتأثير العصبية الجزئية والثاني عنصر الموالي وأهمهم أهل خراسان ولم يكن بين الفريقين التمام حقيقي لاختلاف الغرض الذي يرمي إليه كل منهما.

واقتصار العباسيين على وزراء من العنصر الآخر وهو الموالي كان منتجاً بطبيعته غلبة العنصر الذي هم منه ونيالهم حظاً في الدولة لم يتمتع به مناظروهم من العرب فقد اشتهر من الموالي عدد عظيم في الصدر الأول تمتعوا بالنفوذ والسلطان ونالوا من الألقاب أعلاها سوى لقب الخلافة وانظر إلى بيت خالد البرمكي وما وصل إليه يحيى بن خالد وأولاده فقد توسع الناس حتى أطلقوا عليهم ألفاظ الملوك في مخاطباتهم وفي القصائد التي مدحواهم بها ووردت إليهم خزائن الأرض وجبايات الأموال وتزلف إليهم الناس من كل صنف بغية القربى عندهم وأثر عنهم لدى الرشيد ميلهم وخاصة جعفرأ منهم كلمات تدل على أنهم يريدون التحول إلى خراسان ونزع الخلافة من آل عباس وتحويلها إلى آل علي كما اتهم بذلك قبله أول وزير من الموالي وهو خالد بن سلمة الخلال ومع هذه التهمة السياسية كانت تتردد كلمات تدل على الغمز عليهم في دينهم ونسبة الزندقة إليهم إلى غير ذلك مما يثير الظنون التي لا بد منها في دولة لا تعتمد على عصبية قومية.

ولا مراء في أنه كان لبعض هذه الأسرة غرض من حمل الرشيد على البيعة لولده المأمون بولاية العهد يعد البيعة لأخيه الأمين وكان الداعي إليها هو جعفر بن يحيى ابن خالد البرمكي وكان الذي ظنه الرشيد وهجس في نفسه أن البرامكة سوف يحرشون بين الأخوين ليفرقوا بينهما حتى يحارب أحدهما الآخر ويتفعمون هم بنتيجة ذلك وهذا سبب من الأسباب الكثيرة التي منشؤها تمكن الريية من مواليهم وحذرهم منهم ولذلك لم تر وزيراً عباسياً تمكن من حياة هادئة ذات ختام هادئ بل كانوا كلهم عرضة لهذه النكبات من ضياع الأموال واغتصاب النفوس ولا يمكن أن يكون سبب ذلك المال وحده بل إن المنازعة السياسية وميل الموالي إلى استرداد عز الآباء كان له دخل كبير.

انتهت حياة الرشيد والمغالبة شديدة بين العنصرين الكبيرين اللذين هما دعامة الدولة يلجأ الخلفاء إلى أحدهما كلما رابهم من الآخر شيء إلا أنه قلما نسب إلى المصطفين من العرب فكرة خيانة الدولة وإرادة تحويلها عن آل العباس أو استهانة بوعده أو غدر بمن ائتمنهم وإنما كانت العيوب التي تسند إلى بعضهم وتدفع الخلفاء إلى عقوبتهم هي التقصير في أعمالهم وعدم أخذ الحيطة لها.

جاءت الوقائع بين الأمين والمأمون فكان من نتائجها ازدياد قوة العنصر الخراساني لأن قوة المأمون ارتكزت عليه وظهر البيت الطاهري وهو أول بيت من الموالى منح خراسان على طريقة الاستقلال: والذي كان يزيد في قوة هذه العناصر أن المأمون وأخاه المعتصم كانا يميلان إلى الاستكثار من شبان الأتراك الذين كانوا يقدون على بغداد بكثرة يقدمهم ملوك ما وراء النهر وآل طاهر ومن هؤلاء الشبان من كان يشتري بالمال ومنهم من كان ذا بيت عريق في قومه فقدم بغداد ليستزيد عزاً بحلف هذه الدولة الكبيرة وولائها ولم تزل هذه الوفود تتوارد توارداً مطرداً حتى كان زمن المعتصم وقد تألفت منهم جيوش ظن الخليفة أنه يعتمد عليها في إقامة دولته ويستغني عن العرب وعصية العرب وعن أبناء خراسان أيضاً أما العرب فلامر ما كان هو وأخوه قليل الاعتماد عليهم ويظهر أن ذلك كان للاختلاف الشديد بين قبائلهم وأما الأبناء أو الموالى الخراسانيون فقد كثرت منهم الدالة على الخلفاء وخرج كثير منهم عن طاعتهم لذلك خلقت فكرة اصطناع هؤلاء الموالى الأتراك ظناً من الخلفاء أنهم ليس لهم آمال يريدون تحقيقها وأن الخلفاء متى اصطفوهم أمكنهم الاعتماد عليهم والاستغناء عن عداهم لشجاعتهم وقوة أجسامهم وهذا خطأ غريب ربما كانت الدولة العباسية أول من وقع فيه وهو أن تعتمد دولة من عنصر على عنصر آخر في تأييد قوتها مع أن هذا العنصر يبايتها في الأخلاق وفي العادات ويذكر وطنه الذي ينتمي إليه ولا ينساه إن هؤلاء الأتراك الذين اصطنعوا لم ينسوا لغتهم ولا بلادهم فمن البديهي أن يكون صغورهم إليها وميلهم لها وقد كان فيهم من هو ذو بيت عريق في قومه يميل إلى أن يكون كما كانوا من العز والاستثارة بالنفوذ كما كان الأفشين حيدر بن كارس فقد كان أبوه ملكاً لأشروسنة وكان هو معظماً في قومه حتى كانوا فيما يخاطبونه يدعونه بالآلهة.

زرع المعتصم وأخوه هذا العنصر الجديد في الدولة وما دريا أنهمما بعملهما هذا قد سلما عز الخلافة إلى غلمان الأتراك يتصرفون فيها إشارة رؤسائهم الذين منحهم المعتصم حق قيادة الدولة ولو كان هؤلاء الرؤساء متحدي الأغراض يسعون لغاية واحدة لكانت المصيبة أعظم ولكن كانوا على غير ذلك حتى إن الأفشين لما علم عنه أنه يعد العدة للرحيل إلى المشرق حتى يستولي على خراسان وما وراءها من بلاد ما وراء النهر ويؤسس هنالك مملكة تركية عظيمة كان الذين وشوا به

من الأتراك الذين لا يرون لهم أن يستأثر الأفشين بهذا الملك العظيم .

كان في حياة هذا العنصر الجديد ضعف العنصر العربي ضعفاً عظيماً فتفرق قبائل وعصائب وعاد الكثير منها إلى موطنها في القفر والصحراء والذين بالمدن لم تبق لهم عصبية يستندون في حياتهم إليها وكذلك ضعف الموالي الخراسانيون لضعف ثقة الخلفاء فاختلف التوازن بين عناصر الدولة ووجد غلمان الأتراك أنفسهم منفردين بالملك مستأثرين به . وليس أمام الخلفاء إلا هم فاستحكم نفوذهم وصاروا هم الأمرين حتى امتدت أيديهم إلى حياة الخلفاء وإلى أموالهم وإلى كل شيء عندهم وخضع الخلفاء لهذه القوة التي لم يجدوا أمامهم ما يردها من العرب ولا من الأبناء العنصر الذي كان أول الخلافة شراً وأما هذا فهو نهاية الشرور .

كان تغلب هذا العنصر ولعبه برقاب الخلفاء من بني العباس ذا نتائج سيئة فإنه أضعف صولة الخلفاء وقلل من قيمة أقوالهم وأوامرهم وأما في الأطراف فقد رأى الولاة أن قد آن لهم أن يستقلوا بما تحت أيديهم لأنهم ليسوا أقل من أتراك بغداد الذين استأثروا بالتنفيذ في عاصمة الخلافة نفسها ونم يمتص إلا قليل من الوقت حتى صارت الدولة العباسية (في منتصف القرن الثالث) محاطة بدول مستقلة في الإدارة عن سلطان الخلفاء وتدفع عنها شر اعتراض الجمهور وغضب الخلفاء بإعلان الدعوة لهم على المنابر وكتابة أسمائهم (أحياناً) على السكة وإرسال شيء من المال والهدايا إلى بغداد قد حصل ذلك في المغرب والشرق والجنوب والشمال في آن واحد ولا قبل للدولة بإرسال الجنود لإعادة الحكم العباسي الفعلي إلى تلك الولايات لأن غلمان الأتراك قلما يهمهم ذلك من دأموا أخذين بحلاقيم الخلفاء في حاضرة الدولة فاضطر بنو العباس إلى الرضا بما بذل لهم .

صار المتغلبون يقتتلون ويتزع بعضهم الولاية من بعض ولا عمل للخلفاء إلا أن يصدروا مشور الولاية للغالب الظافر وقد حاول بعض هؤلاء المتغلبين وهو يعقوب ابن الليث الصفار أن يستولي على قلب الخلافة ويزيل عنه المتغلبين عليها من الأتراك لولا ما ظهر من تشدد أبي طلحة الموفق الذي كان ولي العهد وصاحب السلطان في عهد المعتمد على الله والذي أحيا فيه تلك القوة أن العنصر المستولي على الدولة وهو عنصر الأتراك نفس بعضه على بعض ما أتيج له من الغلب والسلطان والمال فضعف أمرهم وطلب كثير منهم أن يتولى قيادة الجيش أحد أفراد البيت المالكة وكان الموفق أقرب إليهم فانتخب لقيادة الجيش فنجح في إحياء شيء من قوة الخلافة إلا أن الداء عضال لا يمكن حسمه وذلك الداء هو فقد الدولة للعصبية القومية التي يمكن الاعتماد عليها فكانت هذه القوة كالبرق الخلب لا يلبث أن يزول ويضمحل أمره . فإن الضعف عاد بعد الموفق وابنه المعتمد إلى أشد مما كان كنكة المريض عسير برؤها شديد أثرها واستمرت الخلافة الاسمية لبني العباس والسلطان الحقيقي لما بقي بأيديهم من البلاد للأتراك إلى أن تحرك عنصر جديد من بلاد الديلم يقوده ثلاثة إخوة من بيت عريق في الشرف القومي وهم أولاد بويه فانتزعوا السلطان من

الأتراك ببغداد وجعلوا ملك العراق لواحد منهم يتصرف فيه والخليفة يأتمر بأمره ولم يكن هؤلاء القوم يدينون بإمامة بني العباس ومع ذلك فقد أبقوا عليهم لأمرين: الأول: مرضاة الجمهور البغدادي فقد كان معظمه يدين بإمامتهم ويفضلهم على آل علي. والثاني: أن الخليفة العباسي يسهل خلعه متى أحسوا به يحاول خلع النير عن عنقه لأنه لا مانع دينياً بمنعهم من ذلك. أما الخليفة العاوي فإنه يصعب عليهم أن ينالوا منه شيئاً وربما نال منهم بقوته الدينية هكذا لعبت السياسة بالعقيدة فأضاعت أثرها ومع ما ناله الديلم من هذا السلطان فإنهم لم يهملوا العنصر التركي الذي كان كثيراً بحاضرة الخلافة بل اعتمدوا عليه حتى كان بعض الملوك من آل بويه يفضل الأتراك على الديلم.

وفي أوائل المائة الخامسة ظهر بالشرق عنصر جديد دخل في الإسلام حديثاً وفارق وطنه متجهاً إلى بلاد المغرب وهو عنصر الغز من أتراك ما وراء سيحون على رأسه بيت عظيم الفخار ممتاز عندهم بالشرف والمجد وهو البيت السلجوقي قاد هذا البيت جماعة الغز إلى بلاد خراسان ولم تقدر الدولة التي كانت بأطراف المملكة الإسلامية على صده فلم يزل حتى امتلك بغداد وأزال عنها ملوك آل بويه وكان هذا العمل على رغبة الخلفاء من بني العباس لأنهم كانوا ميالين إلى إزالة الدولة الديلمية التي كانت غالبية في تشيعها والإدلاء بالأموال إلى دولة أخرى تدين بإمامتهم واحترامهم وقد استمر العراق تحت سلطان آل سلجوق حتى دب إليهم ما دب إلى من قبلهم من داء الخلف والانقسام فكان ذلك مشجعاً لبني العباس إلى اليقظة من هذا السبات الطويل وامتلاك أعنة الخيل والتصرف بما تحت يدهم من البلاد العراقية ولم يكن لهم ما يعتمدون عليه من العصية إلا بقايا مواليتهم من المماليك فأعادوا في العصر المتأخر ما كان عليه سابغهم في منتصف القرن الثالث.

وقد استمر الحال على ذلك حتى خرج سيل المغول الجارف وأزال الدولة العباسية من المشرق كله.

من ذلك يفهم أن أساس الاضطراب كان سائراً مع هذه الدولة من بدء نشأتها وهو فقد العصية القومية التي يعتمد عليها إلا أن توازن القوى في الأول حفظ للخلفاء نفوذهم فلما اختل هذا التوازن اختل معه هذا النفوذ. والمقام الديني هو الذي ظل حافظاً لهذه الدولة من الفناء مع هذا الضعف المتوالي.

٢ - منافسة العلويين

لا مرأى في أن كون الخليفة من آل بيت النبوة أحب إلى قلوب الجمهور من الأمم الإسلامية

وهم لهم أطوع، لأن المؤثر الديني يكون مستحكماً ولذلك صادفت الدعوة إلى أهل البيت نجاحاً عظيماً في صدر المائة الثانية من الهجرة.

وكان أهل البيت الذين لا يعدوهم هذا الأمر من بيتين اثنين كل منهما يسابق الآخر في القرب من رسول الله ﷺ فأما أحدهما فهو البيت العباسي الذي ينتمي إلى العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وعاصبه الوحيد عند وفاته وأما الثاني فهو البيت العلوي الذي ينتمي إلى علي بن أبي طالب ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته فاطمة.

وقد حاول البيت الثاني أن ينال الخلافة قبل العباسيين في عهد بني أمية ففشل قام الحسين بن علي مطالباً بها فقتل دونها وقام حفيده زيد بن علي بن الحسين فقتل دونها بالكوفة وقام على أثره ابنه يحيى بن زيد فكانت نتيجة كتابه - ذلك مع ميل الجمهور العراقي لهم وعطفه عليهم.

أما العباسيون فقد أحكموا أمرهم واستعانوا بأهل خراسان في إحياء بيتهم وكانت الدعوة إليهم مبهمة في أول الأمر لا يزيد الداعي في دعوته على أنه يدعو للرضا من آل محمد ﷺ إلا أن الدعاة والنقباء يعرفون صاحب الدعوة باسمه وشخصه وكانت النتيجة تمام النجاح وساعدهم ضعف عصية خصومهم، فرقوا عرش الخلافة وفضوا على بني أمية.

حرك ذلك من غيرة بني عمهم منهم وحسد لهم ومن المعلوم أن جمهوراً كبيراً كان يؤثر العلويين ويتولاهاهم دون العباسيين وكان بنو العباس على علم من ذلك يرون أن كل فتح جاءهم من غير ناحية العلويين فهو سهل الرتق والتلافي أما هؤلاء فهم الخصم الذي يخاف جانبه لأنهم يشاركونهم في السبب الذي قامت عليه خلافتهم وهو القرب من رسول الله ﷺ، وربما كان لهم في نظر الجمهور الشيعي ما يفضلهم على العباسيين وهو ولادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ فإذا دعوا إلى أنفسهم أحدثوا في العصية التي قامت عليها الدولة انقساماً ولا يدري حينئذ لمن تكون الغلبة.

لما كانت المدينة النبوية هي مقام أبناء علي من بني حسن وحسين راقبهم العباسيون سراً وإذا كان موسم الحج جمعهم الخليفة وهو أبو العباس السفاح فأغدق عليهم العطايا ومنحهم الهبات يريد بذلك لفت أنظارهم عن الدرجة العليا وهي درجة الخلافة ويريههم أن خلافة بني عمهم تحذب عليهم وتسيهم أيام الشدائد التي مرت عليهم في عهد أسلافهم من بني أمية، إلا أن ذلك المعروف الجميل لم يكن إلا معزراً لدواعي الغيرة والحسد وازدياد الشعور بضياح ذلك الحق الذي هم أولى به وإذا كان غصب الأجنبي الحق مؤلماً للنفس فرويته عند القريب أشد إيلاماً ولا سيما إذا ظن من ضاع حقه أنه يجد من يساعده على نيله.

كان أول صدع صدعت به الدولة العباسية خروج محمد بن عبد الله المعروف بالنفس الزكية بالمدينة وكان كثير من أهل خراسان ينتظر قيامه ولولا ما ظهر من شجاعة أبي جعفر المنصور ومضاء عزمته وأخذته بالاحتياط في مصادرة موارده لزلزلت جوانب الخلافة العباسية ولكن تلك الصفات من المنصور قضت على محمد بن عبد الله وعلى أخيه إبراهيم الذي ثار بالبصرة.

وكانت نتيجة ذلك أن اشتدت ريبة العباسيين من بني عمهم فضيقوا عليهم وشددوا المراقبة على المعروفين منهم وأرهقوا الجند في استطلاع أخبارهم فتباعد الأمر واشتدت الجفوة ورأى بنو العباس أنفسهم مجبورين على نبد فكرة التشيع التي أسسوا عليها دولتهم وصاروا يجنحون إلى تقديم الشيخين أبي بكر وعمر على علي بن أبي طالب بعد أن كان دعائهم يقدمونه عليهما واشتد تطلع العلويين إلى قلب الدولة العباسية ليخرجوا من حرج الضيق الذي نالهم وساروا كالطائر المحبوس في قفصه يحاول التخلص منه على غير هدى كما فعل الحسين بن علي الذي ثار بمكة في مدة الهادي (سنة ١٦٩) فحيل بينه وبين مراده وقتل بفضح بالقرب من مكة.

أفلت من تلك الموقعة إدريس بن عبد الله وأخوه يحيى فاتجه الأول غرباً ماراً بمصر ومخترباً شمال إفريقيا حتى أتى المغرب الأقصى فحذب عليه من به من البرابرة وبايعوه بالخلافة وأسس هناك دولة الإدارة في طرف الدولة من الغرب واتجه الثاني نحو المشرق وذهب إلى نواحي الديلم إلا أن قربه من مركز الخلافة حتم عليه الفشل. وقد أظهرت حوادث هذين الأخوين أن من موالي العباسيين وصنائعهم من هواه مع العلويين كواضح مولى بني العباس الذي كان على بريد مصر فإنه هو الذي سهل لإدريس المرور من أرض مصر مع معرفته به وجعفر بن يحيى البرمكي الذي سهل ليحيى بن عبد الله طريق الإفلات من يد الرشيد فكان ذلك مما دعا الرشيد إلى أن يربى على من كان قبله في النفور من العلويين وكراهتهم والتشديد في عقوبة من يتهم بالميل إليهم وشدة التضييق على من بقي بالمدينة منهم وجاء بموسى الكاظم بن جعفر الصادق إلى بغداد ليقم تحت نظره.

ظهر الجرح بجانب الدولة العباسية واجترأت أمة من الأمم الإسلامية وهي أمة البربر بالمغرب الأقصى أن تخرج عن طاعتهم معتقدة أنها نالت حظاً أعلى من حظ سائر الأمم الإسلامية لأنها ظفرت برجل من آل البيت النبوي ومن أبناء ابنته واضطر الرشيد أن يزرع بإفريقية دولة الأغالبة ومقرها القيروان كما يفعل من رأى حريقاً بجزء من داره يجتهد أن يفصل بين ما تناولته النار وبين سائر البيت وهذا ما فعله الرشيد.

جاء المأمون فرأى خطر العلويين محدقاً بالدولة ماذا رأى: رأى كثيراً من أبناء الدعوة ورجال الدين يميلون إلى العلويين ويكرهون ما ينالهم من الشر فأراد أن يتقرب إليهم ببعض

ما يرغبون فيكسر من حديثهم ويضعف من قوتهم فاختر منهم علي الرضا الذي يتولاه أكثر شيعة آل علي وولاه عهده ويظن أنه فعل ذلك إرضاء للحسن بن سهل وزيره الأكبر ومدير أمره وصاحب الفضل الأعظم في سوق الخلافة إليه وإخراجها عن أخيه الأمين وكان الحسن ينشيع وينسب إلى الزندقة أيضاً ولكنه رأى أن النتيجة لم تكن على ما يرغب فإنه وإن أَرْضَى العلويين بهذا العهد قد أغضب العباسيين أصحاب الدعوة فثاروا ضده ببغداد وخلعوه واختاروا من بينهم عمه إبراهيم بن المهدي فلم يكن أمامه ما يربأ به هذا الصدع إلا أن احتال في التخلص من الحسن بن سهل بأن وضع له قوماً تناولوه بأسيا فمهم ثم مات بعقب ذلك علي الرضا فنسب قوم ذلك إلى المأمون أيضاً والقرائن تساعدهم ولكن ليس عندنا من الأدلة ما يقوي هذه التهمة .

عادت الأمور بعد موت هذين إلى مجراها ورجع أهل بغداد إلى المأمون وانحرفوا عن عمه . ظل المأمون بعد ذلك على ولاء العلويين والتشيع لعلي بن أبي طالب وأعلن ذلك في كلامه وفي كتبه حتى إذا رأى منهم الميل إلى الخروج والثورة شرع يعاملهم بمثل ما كان يعاملهم به أبوه بعد ثورة اليمن فأمر ألا يدخلوا عليه واضطر لأن يجاري أباه في الاحتياط فأسس دولة باليمن تشبه دولة الأغالبة بإفريقية وهي الدولة الزيادية والغرض من الدولتين واحد .

واتبعوا طريقة الحجر على أئمة الشيعة وأمرهم بإيهم بالإقامة بمرأى منهم في بغداد أو في سامرا بعد اختطاطها .

ولم يكن الخلفاء معهم على سيرة واحدة فقد كان المتوكل على الله بن المعتصم على غير ما كان عليه أبوه وعمه من الإحسان إلى العلويين والتصريح بتفضيل علي عليه غيره من شيوخ الصحابة وكان في ذلك على سيرة جده الرشيد إلا أنه زاد عليه فقد كان يصرح في مجالسه بانتقاص علي بن أبي طالب ويبح للمجان من جلسائه الهزء والسخرية به ويكره كل من عرف بالتشيع إلى العلويين ويؤذيهم في أنفسهم وأموالهم ويقدم الشعراء الذين يتطرفون في قصائدهم فينتقصون آل علي ويفيض عليهم بالهبات الوافرة . وهدم قبر الحسين بن علي ونهى الناس عن زيارته وشدد في ذلك تشديداً عظيماً فكان الناس من ذلك في هم وحزن حتى إن شاعره الكبير أبا عبادة البحراني لما مات وولي المعتصم وكان على غير طريقة أبيه مع العلويين مدحه بذلك فقال :

رددت المظالم واسترجعت	يداك الحقوق لمن قد قهر
وآل أبي طالب بعد ما	أذيع برأيهم فاندعر
ونالت أدانيهم جفوة	تكاد المماء لها تنفطر
وصلت وثوابك أرحامهم	وقد أوثك الجبل أن يتبر
فقربت من حفظهم ما نأى	وصفيت من شربهم ما كدر

وأيمن بكم عنهم واللقا
فرايتكم بل أشقاؤكم
ومن هم وأنتم يدا نصرة
يشاد بتقديمكم في الكتاب
وإن علياً لأولى بكم
وكان له فضله والحجو
بقيت إمام الهدى للهدى

ء لا عن تباه ولا عن عفر
وإخوانكم دون هذا البشر
وحدا حمام قديم اثر
وتتلى فضائلكم في السور
وأزكى يداً عندكم من عمر
ل يوم التفاضل دون الغرر
تجدد من نهجه ما دثر

مع أن البحري له في المتوكل المدح الجليلة والمراثي المؤثرة.

ثم آل علي ثلثة أخرى في سباج الدولة من الجهة الشمالية الشرقية بتأسيس الحسن بن زيد دولته في الديلم ولم يقلح بنو العباس في القضاء عليه فاشتد الخرق عليهم من الشرق والغرب وفتحت العيون التي كانت تغضى حياء وتخاف تدبناً.

رأى العلويون في النصف الثاني من القرن الثالث أن ينظموا صفوفهم ويمهدوا لقلب الدولة العباسية بالدعوة لها فسنوا لذلك نظاماً خاصاً عرف بنظام الدعوة ساروا في ذلك على أثر الدعوة العباسية إلا أنهم حلوها بشيء من المقدمات وبعثوا دعائهم إلى جميع الأقاليم الإسلامية غرباً وشرقاً ولما تهيأ لهم الأمر أهبوا نار الثورة والاضطراب بشكل مريع على يد القرامطة فزلزلوا جوانب الدولة وحالوا بينها وبين عمل أي شيء يمكنها من القضاء عليهم وفعلوا في الإسلام ما لم يخطر ببال مسلم أن يقوم به مما قدمنا ذكره. ثم قام على أثرهم الفاطميون بإفريقية فاستولوا عليها وعلى الجزائر والمغرب الأقصى ثم مدوا سلطاتهم على مصر وسوريا والحجاز واليمن وشواطئ الفرات وكادت نارهم تلتفح وجه الدولة العباسية وقد حصل أن اتخذ أحد الثوار العراقيين هذه الدعوة ذريعة إلى التمكن من الأمر وخطب فعلاً للعلويين على منابر بغداد نحو ستة.

وكان العباسيون لما رأوا أنفسهم عاجزين عن دفع هذا العدو اللدود عنهم اشتغلوا بما لا يفيد من الطعن في نسب العلويين المصريين وكتبوا في بغداد محضراً وقع به العلماء والفقهاء وكبار بني هاشم وقالوا فيه إن نسب العبيديين بمصر غير صحيح وإنهم ملعونون مع أنه نسب للشريف الرضي نقيب الطالبين ببغداد قوله :

ما مقامي على الهوان وعندي
وإباء محلق بي عن الضيم
أي عذر له إلى المجد إن ذ
أبمس الذل في ديار الأعادي

مقول صارم وأنف حمي
كما راغ طائر وحشي
ل غلام هم عمده المشرقي
وبمصر الخليفة العلوي

من أبوه ومولاه مولا
لف عرفي بعرفه سيد النا
إن ذلي بذلك الجو عز
قد يذل العزيز ما لم يشمر
إن شراً علي إصراع عزمي
ارتضي بالأذى ولم يقف العز
كالذي يخطب الظلام وقد
ي إذا ضامني البعيد القصي
س جميعاً محمد وعلي
وأوامي بذلك النفع ري
لانطلاق وقد يضام الأبى
في طلاب العلا وحظي بطي
م قصوراً ولم تعز المطي
أقمر من خلفه النهار العضي

ولما اشتهرت عنه عتب الخليفة القادر بالله على والده فأنكرها ولم يشتها في ديوانه وهي مشهورة عنه ومن طراز شعره وعلى الجملة فإن مثل هذه الأشياء لم تفدهم فائدة ما .

ومما زاد الأمر بلية أن بنى بويه الذين استولوا على بغداد في منتصف القرن الرابع كانوا شيعة فأباحوا للشيعة الظهور في بغداد بما يشتهون من العادات التي كانوا يفعلونها يوم عاشوراء فقد كانوا يجعلونه يوم حزن يخرج النساء فيه حاسرات نادبات لا طمات ينعين الحسين بن علي رضي الله عنه وغير ذلك من العادات وصار الناس يتقربون إلى السلطان بالتشيع .

وفي أوائل القرن السادس ظهرت فئة الباطنية بفارس وبالشام فأرهبوا الناس وأفسدوا الدول وتكثروا من اغتيال بعض خلفاء بني العباس .

واستمر هذا النزاع السياسي بمصر حتى سقطت الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب واستمر مع الباطنية بفارس والشام . واستمر مع أهل بغداد حتى ليقال إن السبب في هيج التثار وإغرائهم على أخذ بغداد هو حادثة اعتداء وقعت من أهل السنة على محلة الشيعة وهي الكرخ .

من ذلك ترى أن النزاع بين العباسيين وآل علي استمر من أول خليفة إلى آخر خليفة وكان ذلك سبباً من أسباب ضعف الدولة بعد ما تقدم ذكره من خلل العصية التي كانت عمدة العباسيين .

ويمكن أن يعد هذا السبب من متهمات السبب الأول .

٣ - ضعف قيمة العهود

الوفاء بالعهد خلق عربي حافظ عليه العرب في جاهليتهم وبذلوا دونه أموالهم وأنفسهم وأبناءهم عرف لهم ذلك من جاورهم من الأمم كالفرس والروم وحوادثهم في ذلك مأثورة قد حفظتها بطون الصحف ولنا بصدد أن نقتصها . لما جاء الإسلام أيد هذا الخلق وأمر به أمراً حتماً

لا هودة فيه. قال تعالى في سورة الإسراء ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾^(١) وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي شددت في وجوب الوفاء بالعهد واعتبارها أساساً تقوم عليه الأمة الإسلامية وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون كما يعلم من استقراء توارихهم وكذلك نحا بنو أمية هذا المنحى لأن العنصر العربي كانت له المكانة فيها بل يصح أن يقال إنها كانت دولة عربية محضة وقد اعتد الناس على عبد الملك بن مروان فعلته التي فعلها مع سعيد بن العاص حيث قتله بعد أن عاهدته على تأمين حياته وقالوا إنها أول غدرة في الإسلام وسأل عبد الملك أحد كبار رعيته من شيوخ العرب عن رأيه فيما فعل مع سعيد فقال حسن لو قتلته وحيث فقال عبد الملك أو لست بحي فقال الشيخ العربي حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد. فانظر كيف عد العربي هذه الحياة كلا حياة ولم يصل إلى علمنا في هذه الدولة حوادث أخرى من هذا القبيل لأن الأمة كانت لها رقابة شديدة على خلفائها.

لما جاءت الدولة العباسية وقد ظهرت على أيدي عنصر غير عربي ظهر منها لأول نشأتها حوادث متكررة تدل على أنه ليس للعهد في نظر خلفائها قيمة فقد قتل المنصور في حياة السفاح ابن هبيرة بعد أن أمن أماناً لا شك ولا حيلة فيه وكان الذي أشار بقتله أبو مسلم الخراساني مشيد بالدعوة العباسية وكانوا لا يحبون أن ينقلوا أمراً دون مشورته. ثم أعاد المنصور هذه الرواية نفسها مع أبي مسلم بعد أن أمنه ثم فعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن علي بعد أن أمنه وأعلن رضاه عنه ولذلك لما كاتب المنصور محمد بن عبد الله بن الحسن وقال إنه يعطيه الأمان أجابه محمد بقوله وأما أمانك الذي عرضت فأبي الأمانات هو أمان ابن هبيرة أم أمان أبي مسلم أم أمان عمك عبد الله بن علي والسلام وهذه كلمة شديدة الوقع سيئة التأثير لأنها وصمة عار كبيرة لمن هو قائم مقام رسول الله ﷺ في حراسة دينه وسياسة الأمة.

وهذا الذي حصل في صدر الدولة كان مجزئاً لمن أتى بعد ذلك أن يحاولوا التخلص مما تقضى به العهد إذا رأوها مخالفة لمصالحهم ولا سيما العهد التي تعقد لتولي الخلافة فإنهم جعلوها من الأشياء التي يسهل حلها وإن كان بعضهم يحاول أن يلبس باطله ثوب الحق. فعل ذلك المنصور مع عيسى بن موسى الذي عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور فقدم عليه ابنه محمداً المهدي وهذا التقديم وإن كان قد تم بطلب عيسى ورضاه إلا أنا نعرف كيف توصل المنصور إلى الحصول على هذا الرضا من الإساءات المتكررة لعيسى والتهديد المتواصل حتى هم الرجل أن

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٣٤.

(٢) سورة: النحل، الآية: ٩١.

يخلع طاعة المنصور ويفتن الأمة وفي رأيي أنه لو وجد نصراء لفعل وإن كان قد أثر عنه شعر يفيد أنه أثر مصلحة الأمة على مصلحة نفسه وهو قوله :

خيرت أمرين ضاع الحزم بينهما إما صغار وإما فتنة عمم
وقد هممت مراراً أن أساجلهم كأس المنية لولا الله والرحم
وفعل المهدي مثل ذلك معه فعزل عن العهد بكرة وقد ارتكب من الوسائل ما ارتكبه.

وفعل الأمين ذلك مع أخيه المأمون فأدى ذلك إلى الفتنة الشعواء التي كانت بين (سنة ١٩٤) إلى (سنة ١٩٨) قاست الأمة في أثنائها مصاعب هائلة ولم يوجد منهم من هاب ذلك الفعل محافظة على العهود والمواثيق ومن البديهي أن أمثال هذه العهود ليست قاصرة على المتنازعين بل تتعداهم إلى القواد والأمرء فهؤلاء ينشقون أيضاً ويستسهلون الإقدام على فك تلك القيود التي حلفوا الأيمان الوثيقة على الوفاء بها.

كتب الرشيد أماناً ليحيى بن عبد الله وأكد فيه غاية التأكيد ولما ارتاب منه صار يبحث في الوجوه التي يبطل بها الأمان وجعل فقهاء وقته الواسطة في ذلك فمتهم من أبت عليه شيمته ودينه أن يسترسل في الدين مع الأهواء ومنهم من سارع إلى هوى الخليفة وصار يبذي الأوجه التي يتقضى بها الأمان.

كل هذا من العيوب التي شقت عصا البيت وتعدت إلى فرقة الأمة فأضعفت عصية الدولة وآل الأمر بخلفائها إلى أن تكون قوتهم مستمدة من المتغلبين عليهم.

وقد بقيت أسباب أخرى ثانوية يمكن استنتاجها مما تقدم في التاريخ التفصيلي والله تعالى أعلم.

بعونه تعالى تم الكتاب